ناحية الصحة العقلية فى الإصلاح الريفى*

بقلم

الدكتور محمد كامل الحولى بك

مدير عام مصلحة الأمراض العقلية بوزارة الصحة العمومية (مصر)

أتقدم بالشكر خالصاً على أن هيئت لى هذه الفرصة للتحدث إلى حضراتكم لبضع دقائق عن ناحية الصحة العقلية فى الإصلاح الريفى . وأود أن أذكر أنى أقوم بهذا لا بصفتى الرسمية كموظف حكومى فحسب بل بالأكثر ممثلا للجمعية المصرية للصحة العقلية وإلى حد ما نيابة عن الاتحاد العالمى للصحة العقلية بصفتى نائباً لرئيس مجلسه التنفيذى ، ذلك الاتحاد المنضم إلى عضويته أكثر من ٦٠ جمعية منبثة فى معظم أمم العالم وضمنها جمعيتنا المصرية والذى له صفة استشارية لدى أكثر من واحدة من منظمات الأمم المتحدة بما فيها هيئة (اليونسكو) وهيئة الصحة العالمية وأيضاً المجلس الاقتصادى والاجتماعى .

إنها لفكرة صائبة موفقة أن توجه جهود الباحثين فى هذه الحلقة إلى دراسة المشاكل الريفية فى العالم العربى . إذ فضلا عن أن أهالى الريف يمثلون الأغلبية من سكان بلادنا بل سكان العالم أجمع فإن القرية هى الوحدة التى تمثل الأمة بحق والصورة المصغرة لبلاد زراعية كبلادنا . وإذن هى التى تعطى الغريب عنا فكرة حقيقية عن مبلغ ما وصلنا إليه من رقى . وهى فى الوقت نفسه بمثابة السلسلة الفقرية لأممنا بما أنها موطن الأخلاق القويمة والعادات المتوارثة عن الآباء والأجداد ومعقل المحافظة على القديم . ولذا هى درع حصين يقى أوطاننا شر الآراء المتطرفة التى تهب ريحها من المدن ويقل من حدتها ويحد من الطفرة الملازمة لها فتتدرج البلاد فى التقدم بسنة التطور بدلا من أن تصاب برزايا الثورات . فالاهتمام بأمر القرية لا تقتصر فوائده على سكانها بل يعتبر تمكيناً للأساس الذى يبنى عليه تقدم البلاد ومجدها .

---

* محاضرة ألقيت فى حلقة الدراسات الاجتماعية بالقاهرة (١٩٥٠) .

إن المتصفح للبرنامج الذى وضع لهذه الحلقة يجده حافلا بالمواضيع الهامة التى تتناول كل نواحى الإصلاح فى القرية من تعليمية وتخطيطية وزراعية واقتصادية وصناعية وصحية واجتماعية . وقد قام ويقوم حضرات الباحثين مشكورين بالإدلاء بما تخوله لهم خبرتهم من آراء فى كل المسائل سالفة الذكر . وجرت وتجرى مناقشة هذه الآراء فى جلسات عديدة تسود فيها على ما أعتقد فكرة معينة هى أن يشمل الإصلاح عند تنفيذه جميع النواحى فى وقت واحد . وستسفر سلسلة الاجتماعات هذه عن محصول ضخم من التقارير والقرارات التى سوف تكون محل بحث وعناية الحكومات العربية لتتخذ بشأنها من الإجراءات التشريعية والتنفيذية ما يلائم الظروف المحلية لكل منها .

لكن لكى تكون الإصلاحات المقترحة والمنشودة منتجة بحيث لا تبذل الجهود فى سبيلها سدى يتعين مراعاة العوامل النفسية السائدة فى البيئات الريفية واتخاذ الوسائل التى تساعد على تهيئة الجو الملائم لأن تصادف هذه الإصلاحات قبولا حسناً من جانب القرويين وارتياحاً لتنفيذها . ولست أدعى العلم بالظروف السائدة فى قرى البلاد العربية الشقيقة . ولكنى أستطيع أن أقرر فيما يختص بهذه البلاد أن الريفى العادى يقابل عادة كل تشريع جديد وكل سلطة حكومية بتحفظ شديد وبسوء ظن واضح . ولا يتسع المجال هنا لبيان الأسباب والظروف التى أدت إلى سيادة هذه الحالة النفسية . وإنما يجدر بالمصلحين أن لا يغفلوا عن وجودها وأن يتخذوا من التدابير ما يساعد على تخفيفها أو إزالتها وذلك بأن يفهم القروى بالقول ويشعر بالفعل أن الاستغلال الذى تعرض له أحياناً فى الماضى قد ذهب إلى غير رجعة . وأظن الأوان قد حان لأن يكون ضمن هذه التدابير إجراء تحوير تدريجى فى النظام الإدارى للقرية حتى يميل حكمها إلى ناحية الديمقوقراطية فيتناسب مع الحياة النيابية السائدة فى الشرق العربى والتى هى من وحى ديننا الحنيف والديانات الأخرى . وسوف ينشأ عن هذا التحوير إيجاد المجالس القروية التى يرأس كلا منها عمدة أو مختار ينتخبه الأعضاء سنويا وتكون له هذه الصفة المدنية فقط دون أية سلطة إدارية بينما تترك لرجال الشرطة مباشرة مهمة المحافظة على الأمن وسوف تكون هذه المجالس عبارة عن هيئات نيابية محلية يتدرب فيها المواطنون على أساليب الحكم السليم . وإذا توافرت العناصر الصالحة ضمن أعضائها وفرضت الرقابة الرشيدة على أعمالها فإنها ستكون من بين الأدوات الهامة للقيام بالإصلاح الريفى

المنشود . ولا شك أنه مما يساعد هذه المجالس على القيام بمهامها أن يعود الأعيان إلى الإقامة فى قراهم وينخرطوا فى عضوية تلك الهيئات أو على الأقل يشتركوا فى أعمالها عن طريق بذل المشورة إلى أعضائها . ولن تمنع إقامتهم فى القرى من أن يكون لهم مسكن آخر بالمدن أسوة بأشراف بريطانيا وغيرها . ولكن تلك الإقامة أصبحت من الأهمية بمكان لكى يقوموا بقيادة حركة الإصلاح فى قراهم فيعود الريفى العادى إلى التمتع بحمايتهم وبذا تتحسن حالته النفسية ويحسن الظن بالوسائل الصادقة المخلصة التى تستحدث للأخذ بناصره ومساعدته .

وبتحوير النظام الإداي تدريجياً على هذه الصورة سوف يكون للمراكز الاجتماعية ولجمعيات التعاونية والمجموعات الصحية والمدارس الريفية وغيرها شأن أكبر وشأو أبعد إذ سوف يتمتع موظفوها بحرية أكثر مدي فيتسع مجال العمل أمامهم ويؤدون واجباتهم على الوجه الأكمل ويساهمون كل بنصيبه فى إدخال الطمأنينة على نفوس القرويين بإحسان معاملتهم والإخلاص فى خدمتهم . وهنا تتضح أهمية التدقيق فى اختيار أولئك الموظفين من أطباء ورجال دين ومرشدين اجتماعيين ومرشدين زراعيين ومدرسين ومعاونين صحيين وقابلات وغيرهم ، ثم ضرورة إفهامهم دورهم العظيم كرواد إصلاح وطلائع الرقى والتمدن فى بلادهم . على أن تتذرع الحكومات بكل وسائل التشجيع الممكنة لإغراء هؤلاء الأفراد بالإقامة فى القرى إقامة مستمرة خدمة لمواطنيهم . وحبذا لو أمكن تزويدهم بالمعلومات اللازمة عن الصحة العقلية لكى يستخدموها فى إرشاد الريفيين إلى أن تكون نظرتهم إلى هذه الحياة الدنيا نظرة صادقة فيبينوا لهم أنها لا تخلوا أبداً من الصعوبات وأنه لذلك يجدر بهم أن لا يجسموا تلك الصعوبات ، ثم يستحثوهم على تذليلها واجتيازها ، ويبذلوا لهم المساعدة فى هذا السبيل . كذلك يستخدم الموظفون تلك المعلومات فى تنمية الألفة والثقة بين سكان القرية وفى تفهيمهم فائدة التعاون بينهم بطرق حسية عملية تؤثر فى نفوسهم وتتفق مع وجود الأمية الغالبة بينهم . وليس هناك مجال للشك فى أن الجمعيات التعاونية يمكن أن تؤدى أجل الخدمات للمواطن الريفى لو أحسن استخدامها بحيث تحوز ثقته بفائدتها .

وهنا تجدر الإشارة إلى ما ينشب بين الريفيين من منازعات هى صغيرة نسبيا . ولكنها بفضل الطرق المعوجة التى تستعمل أحياناً فى معالجتها محليا أو بسبب طول الإجراءات القضائية تولد بمضى الوقت مشاحنات وقضايا جديدة فتزداد حالة

التوتر بين المتخاصمين وتشتد المرارة والحزازة الشخصية مما يؤدى فى النهاية إلى اضطراب حبل الأمن والنظام فضلا عن إضاعة أوقات المتشاحنين فيما لا يجدى ولا يفيد . لذلك يكون من المرغوب فيه كثيراً إيجاد أداة قضائية مبسطة تفصل فى تلك المنازعات بالعدل والانصاف وبالسرعة الممكنة . وبذا تستقر فى نفوس الأهالى سيادة القانون وسلطانه وتنقطع أو تخف الحزازات بينهم وتنصرف جهودهم إلى ما ينفعهم وتنشأ بينهم صلات التعاطف والتعاون والتضامن فيما فيه الخير لقريتهم . وربما يكون فى الأمكان عند ما يشتد ساعد المجالس القروية أن تتألف لجان قضائية من بعض أعضائها أو على الأقل أن يشترك فى عضويتها للقيام بهذه المهمة الضرورية .

والآن أود أن أبدى بعض الملاحظات عن النشء أى الجيل الجديد . فأوجه النظر إلى أهمية العناية بالمدرسة الريفية . فبدلا من أن تبقى عبارة عن مجرد تجمع لصغار التلاميذ واصطفافهم جنباً لجنب فى غرفة واحدة أو أكثر لاستماع الدروس واستظهارها يجب أن يصبح هذا المعهد بيئة اجتماعية تكون مهمتها قبل كل شىء تعويد الطفل على العمل والمعيشة — لا كفرد أنانى — بل كعضو نافع فى جسم مكون من أقرانه الصغار . لهذا يكون من الضرورى تهيئة الفرص لاتصال التلاميذ بعضهم ببعض واستخدام الوسائل اللازمة لإيجاد روح التعاون بينهم من ألعاب رياضية إلى روايات تمثيلية إلى جماعات زراعية وموسيقية وغيرها ومن إعطاء إرشادات فى النظافة الشخصية إلى دروس عملية تشمل تعاون التلاميذ على تنفيذ القواعد الصحية التى تتطلبها نظافة المدرسة واستمرار خلوها من الأمراض المعدية . هذه الوسائل وأشباهها تساعد على الحد من أنانية الأطفال وعلى تكوين ضمائرهم الأدبية . وتربى فيهم الشجاعة وحب الانصاف والغيرة على الصالح المشترك . وإذا ما شبوا على هذه الاخلاق الطيبة فإنهم لا شك يستمرون على الاتصاف بها فى رجولتهم . ومع قيام كل منهم فى حياته الجديدة بواجبه نحو نفسه وبالسعى لتيسير الرزق لشخصه وعائلته فإنهم يعرفون الحد الذى لا يصح أن يتعداه حبهم لذاتهم ويبتعدون عن كل ما يمس المصالح المشتركة للقرية ويتضامنون فيما يعود عليهم جميعاً بالخير والرفاهية . وبفضل حيازتهم لقسط من الثقافة يسهل لديهم تفهم مقاصد الحكومة الحسنة ويتعاونون معها فى إصدار القوانين النافعة وتنفيذها سواء أكانت صحية أم زراعية أم غير ذلك .

وتقوم المدرسة الريفية أيضاً بمهمة المساعدة على منع أو تقليل نزوح القرويين إلى المدن وذلك بتحبيب الريف إلى نفوس التلاميذ فتستحثهم على حب المعيشة فى الخلاء والهواء الطلق . وتفقههم على حقيقة الدور العظيم الذى يقوم به الريفى فى بلادنا . ذلك الدور الذى يدعو إلى فخاره بما أنه يكفل لوطنه الثروة والرخاء . وتوجه الجهود إلى تعليمهم مبادىء الزراعة وإلى استثارة رغبة الأولاد فى العمل بالحقول وتعهد البساتين وتربية الدواجن والنحل والصناعات الصغيرة وإلى تعليم البنات قواعد علم الصحة والتدبير المنزلى والوسائل الكفيلة بسلامة الحمل والوضع وبتجميل بيوتهن . وإذا ما أنتجت هذه الإجراءات وغيرها بقاء الشبان والشابات فى قراهم فإن هذا يساعد على عمران الريف ويحبب إلى سكانه تجميل قراهم وإصلاحها وإيجاد الوسائل الباعثة على تسليتهم وسرورهم .

وإلى جانب قيامها بتربية الصغار وتهذيبهم يجب أن تكون المدرسة الريفية بمثابة منارة يشع منها العرفان والثقافة لأهل القرية من البالغين . فيوجد بها قسم « ليلى للمساعدة فى مكافحة الأمية كما توجد بها مكتبة » يستفيد منها غير الأميين . كذلك تشترك المدرسة مع المركز الاجتماعى إن وجد فى تهيئة وسائل التسلية للقرويين . وبذا تمتزج معيشة القرى المملة بتشابهها بضروب من الترفيه ترتاح إليها النفوس فيكون هذا خير معوان على تطهيرها من وساوس النزوح إلى المدن والمراكز الآهلة بالسكان . ومن هذه الوسائل تنظيم المحاضرات والمسامرات مع الاستعانة عند الاقتضاء بالفانوس السحرى أو السينما أو جهاز الإذاعة أو المسرح الشعبى . ثم إعداد روايات تمثيلية يقوم بأدوارها التلاميذ والشبان ويحضر لمشاهدتها أهالى القرية .

بقيت مسألة من الأهمية بمكان فى حياة الريفيين وهى الألعاب الرياضية خصوصاً الجماعية منها . ولربما أثار هذا الأمر بعض الابتسام على شفاه الشبان المصريين من الحاضرين ظناً من حضراتهم أن هذه الألعاب غير معروفة فى الأرياف . ولكن من بلغوا منا الخامسة والخمسين أو يزيد لا بد يذكرون كيف كانت القرى عامرة بالألعاب المختلفة والمختصة كل منها بأحد فصول السنة . وكيف كانت الأجران فى غير أوقات دق الحصيد — وهى قصيرة — تستخدم كساحات لهذه الألعاب لكنهم يجدون اليوم أن هذه الأجران قد تلاشت وقامت الأبنية مكانها وأن الألعاب الريفية اندثرت تقريباً وذهبت باندثارها البهجة التى

كانت تثيرها فى نفوس الأطفال والمراهقين من الريفيين فخيم عليهم بدلها البؤس والتبرم . لذا يبدو من الواجب إحياء هذه الألعاب وتهذيبها ووضع القواعد لها حتى تستمر الصلة بالماضى فتحتفظ القرية بتاريخها وتقاليدها . ومن المتعين على كل حال تشجيع الرياضة البدنية بأنواعها وتنظيم الحفلات لها بواسطة المراكز الاجتماعية والمدارس الريفية ، إذ أن الألعاب الرياضية تنمى الأجسام والعقول وتولد فى الأشخاص حب الإنصاف والرجولة والشجاعة الأدبية وإذ أنها من أهم العوامل التى تساعد على بث الألفة وروح العشرة بين أفراد الهيئة الاجتماعية وأنها فى النهاية أحد أنواع التسلية الواجب توافرها فى حياة القرى المملة بتشابهها .

لست أدعى أنى ألممت بأطراف هذا الموضوع جميعها . ولكنى أرجو أن أكون قد ذكرت لحضراتكم ما يكفى لإبراز أهمية العوامل النفسية فى الإصلاح الريفى ، حتى يدرسها المسئولون ويتدبروها ، فلا تضيع مجهوداتكم ومجهودات المشرعين والحاكمين هباء عند تهيئة ضروب هذا الإصلاح المختلفة ومحاولة إدخالها فى القرى .

محمد كامل الخولى بك